السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة الكافرون

دروس في تفسير القرآن الكريم



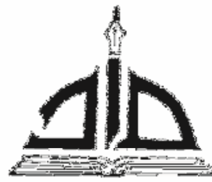
المركز الإسلامي للدراسات

تفسير
سورة الكافرون

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ



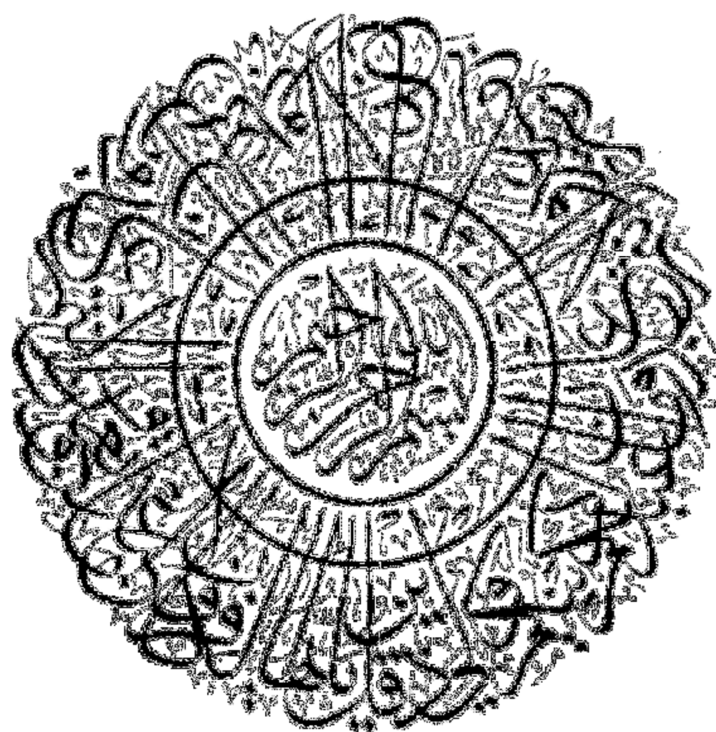
المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة الكافرون

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات



تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، من الأولين والآخرين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد.. فهذه بيانات موجزة لما تم طرحه على بعض الإخوة في الجلسات التي كانت لنا معهم، وهي ترتبط بسورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.

وقد استخرجت من أشرطة التسجيل، ومرَّ عليها قلم التقليم والتطعيم، والتصحيح والتوضيح، نأمل أن يجد فيها القارئ الكريم بعض ما يجدي في تبديد وحشته، أو يؤنسه في وحدته..

على أمل أن يغض الطرف عن السقطات والتقصيرات، وأن يتصدق علينا بالإشارة إليها، والدلالة عليها، وسنكون له من الشاكرين، والداعين له بحسن العاقبة، وأن ينيله الله شفاعة سيد المرسلين، وأهل بيته الطاهرين..

والحمد لله أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى،

وآله الأطهار..

حرر بتاريخ: 1437/10/25 هـ.ق. 2016/7/3 م. ش.

لبنان ـ جبل عامل ـ قضاء بنت جبيل ـ عيثا الزط (أو عيثا الجبل)

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفصل الأول:

شأن النزول..

بداية:

1 ـ إن هذه السورة المباركة تتضمن البراءة، وإظهار التباين بين حقيقة عبادة المؤمنين، وحقيقة عبادة الكافرين، لأجل التباين الواضح بين الكفر والشرك، وبين التوحيد والإيمان.. فهما لا يلتقيان أبداً لذلك منذ الأزل، وإلى الأبد.

أما ما جاء في سورة التوبة ـ مثلاً ـ فقد كان لإظهار البراءة من المشركين والكافرين، بسبب كفرهم وشركهم.. وشتان ما بين الأمرين.

2 ـ إن ما يروى في شأن النزول، ربما ألقى الضوء على التوجه العام للآيات النازلة في هذه السورة، وربما أسهم أيضاً، في إيضاح بعض خصوصيات معانيها.

فينبغي أن يطلّ عليه الباحث عن معاني القرآن ومراميه.. ويكون على بصيرة من أمره فيه، فيسجل مؤاخذاته لمضامين رواياته، ويؤيد ما هو سديد.. إن رأى أن ثمة حاجة إلى ذلك.. فلعل من يأتي بعده، يطَّلع على ما اعتبره مؤاخذة، فيقدم له حلولاً، ويرشده إلى مخارج رصينة، وبالاحترام جديرة وقمينة

قيل في شأن نزول سورة الكافرون:

قالوا: إن رهطاً من المشركين قالوا للنبي «صلى الله عليه وآله»:

هلمَّ فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزلها الله عز وجل(1).

وفي نص آخر: أنه «صلى الله عليه وآله» قال لهم: معاذ الله أن أشرك به غيره.

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد آلهتك.

فقال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي.

فنزل: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾. السورة.. فعدا «صلى الله عليه وآله» إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة.

فأيسوا عند ذلك، فآذوه، وآذوا أصحابه(2).

ويؤيد ذلك: ما رواه القمي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير قال:

---

(1) إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش ج8 ص 430 والميزان (تفسير) ج20 ص375 عن ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وراجع الأمالي للشيخ الطوسي.

(2) بحار الأنوار ج9 ص172 ومجمع البيان (تفسير) ج10 ص463 وتفسير الثعلبي ج10 ص315 وتاريخ الأمم والملوك ج2 ص75 والدر المنثور، وتفسير أبي الفتوح الرازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

سأل أبو شاكر أبا جعفر الأحول عن قول الله عز وجل: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾.

فهل يتكلم الحكيم بمثل هذا القول، ويكرره مرة بعد مرة؟!

فلم يكن عند أبي جعفر الأحول في ذلك جواب.

فدخل المدينة، فسأل أبا عبد الله «عليه السلام» عن ذلك، فقال: كان سبب نزولها وتكرارها: أن قريشاً قالت لرسول الله «صلى الله عليه وآله»: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة.

فأجابهم الله بمثل ما قالوا، فقال فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾.

وفيما قالوا: نعبد إلهك سنة: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾.

وفيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: ﴿**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ**﴾.

وفيما قالوا: ونعبد إلهك سنة: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾.

قال: فرجع أبو جعفر الأحول إلى أبي شاكر، فأخبره بذلك.

فقال أبو شاكر: هذا حملته الإبل من الحجاز[1].

ونقول:

لا بأس بملاحظة الأمور التالية:

---

(1) الميزان (تفسير) ج20 ص375 وتفسير القمي ج2 ص445.

1 ـ إن ما عرضه المشركون على رسول الله «صلى الله عليه وآله» يدل على أنهم كانوا في شك من صحة ما هم عليه.. ولاسيما بعد أن تضافرت الشواهد والدلائل التي كان «صلى الله عليه وآله» يواجههم بها.

وقد أظهرت الوقائع لهم: أن الكثير من الذين قد آمنوا بما جاءهم به النبي «صلى الله عليه وآله»، وواجهوا أشد المصائب والبلايا، وصبروا عليها، لم يتخلوا عن قناعاتهم، مع عدم وجود ما يمكن التعويل عليه في دفع هذه البلاءات، سوى الصبر الذي كانوا يرجون فوائده وعوائده في آخرتهم، وكان هو الرجاء لهم، وهو سلوتهم، ونيل رضوان الله تعالى أملهم.

2 ـ وقد حفلت الآيات الكثيرة بالتصريحات التي تؤكد على أن الكافرين أو أكثرهم يظنون، أو يخرصون، أو أنهم يجحدون الحق، وهم يعلمون.

وأن المؤمنين كانوا على بينة من ربهم، ويقين من أمرهم، وأنهم يستندون في يقينهم هذا ليس فقط إلى الأدلة العقلية، بل إلى المعجزات والكرامات، والمشاهدات التي تؤكد صدق هذا النبي، وتظهر فضله العظيم أيضاً، بالإضافة إلى ما لمسوه بفطرتهم السليمة، ووجدانهم الطاهر.

3 ـ إن الرفض القاطع للشرك والكفر من قبل رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد أظهر أن هذا الذي عرضوه على رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يتضمن أي تنازل منهم، بل كان النبي «صلى الله عليه وآله» هو الخاسر والمغبون فقط، لو قبل ما عرضوه عليه.

والسبب في ذلك: أن أكثر المشركين ما كانوا ينكرون وجود الله، بل

كانوا يعترفون بوجوده، وأنه هو الخالق للموجودات، ولكنهم يرون أن لآلهتهم الأخرى شأناً في التدبير للأمور، فهي التي ترزقهم، وتشفي مرضاهم، وتقضي حوائجهم، وتهتم بشؤونهم، فهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى.. للحصول على مراداتهم، فعبادتهم لله تعالى سنة لا تنقض اعتقادهم بأصنامهم، ومن وما يعبدونه سواه سبحانه وتعالى.

ولكن إذا استجاب النبي «صلى الله عليه وآله» لطلبهم بعبادة أصنامهم سنة، فذلك ينقض اعتقاده: بأن الله هو الخالق، والرازق والمدبر، والشافي والكافي، وقاضي الحاجات، وما إلى ذلك.

مع أن هذا هو الحق الصراح الذي لا ريب فيه، فالتخلي عنه إلى غيره، اعتراف بالباطل، وتفريط بالحق.

وسيأتي: أن رائحة الخداع تفوح من اقتراح المشركين هذا، حيث أرادوا ـ فيما يبدو ـ استدراج النبي «صلى الله عليه وآله» إلى مثل هذا الاعتراف، ليرتبوا عليه ادِّعاء: أنه اعترف بآلهتهم وقدسيتها، وأقر ببطلان ما جاء به، فلعل من فوائد أصل التكرار الموجود في الآيات هو هذا التأكيد على رد مثل هذا الاقتراح المخادع، وإرادة لفت الأنظار إلى مكامن الغش فيه.

4 ـ أما تخليهم عن طلب عبادة أصنامهم سنة، ثم عبادة الله سنة، إلى طلبهم منه «صلى الله عليه وآله» أن يستلم بعض أصنامهم، فله نفس النتائج والسلبيات التي ذكرناها عن موضوع العبادة آنفاً.. حيث إن استلام تلك الأصنام يستبطن الاعتراف بقداستها، وبأن لها شأناً وأثراً..

فلا يصح منه «صلى الله عليه وآله» بعد هذا الاستلام أن يطالبهم بالدخول في دينه، وترك عبادة الأصنام، إذ كيف يطالبهم بتركها، وهو قد أقر باستلامه لها، بأن لها شأناً يؤهلها للتقديس والعبادة؟!

5 ـ إنه «صلى الله عليه وآله» لم يقل لأولئك الكافرين، حين جاؤوه بذلك العرض: حتى أستأذن ربي، لكي يمكنهم اعتبار ذلك وعداً منه لهم، يمكنهم أن يطالبوه بالوفاء به.

بل قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي..

وهذا موقف سليم، فإن المفروض: أن هؤلاء الملأ قد ألزموا أنفسهم بالدخول في دينه، وترك دينهم لو استلم بعض أصنامهم..

والمفروض: أن ظاهر كلامهم أنهم يريدون منه مجرد حركة ظاهرية، ولا يريدون منه أن يدخل في الشرك والكفر، المتمثل بالعبادة للأصنام، وهو الأمر الذي رفضه «صلى الله عليه وآله»، فقدموا هذا العرض بناء على رفضه هذا، وقد رضوا منه بذلك، فيصير حاصل العرض:

أولاً: قبولهم منه بالبقاء على التوحيد ورفض الشرك.

ثانياً: إنهم يطلبون منه أمراً شكلياً لا مضمون له، بل هو مجرد التظاهر باستلام بعض أصنامهم.

ثالثاً: إنهم في مقابل ذلك يتخلون عن شركهم كله، ويدخلون في دينه بصورة نهائية ودائمة.

فلو أنه «صلى الله عليه وآله» بادر إلى رفض ذلك لاتهموه بالتسرع، وبأنه

يتصرف بالأمور من عند نفسه، وحسب هواه.. وذلك يوجب الريب فيما يدَّعيه، من أنه لا ﴿**يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[1].

وبذلك يصير هو السبب بنظر قاصري النظر في تأزيم الأمور، ويوهمون الناس بأنه هو الظالم لهم، والمعتدي على حقهم، وكرامتهم.

فكان لا بد من أن يأتي الجواب من الله مباشرة، لا منه «صلى الله عليه وآله». وهذا ما حصل بالفعل فاستمهلهم ليأتيهم الجواب من عند الله تبارك وتعالى، فنزلت هذه السورة المباركة.

6 ـ لقد كان الجواب بهذه السورة المباركة صاعقاً للملأ من قريش، فقد بينت هذه السورة: أن العبادة للأصنام لا يمكن تحققها خارجاً ما دام الاعتقاد بالتوحيد موجوداً.

وكذلك الحال بالنسبة لعبادة الله، فإنها يستحيل أن تتحقق من مشرك، ما دام مشركاً، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

فإن كانوا بصدد الخداع، فإن هذا المنطق الواقعي يسقط هذا الخداع، وإن كانوا جادين فيما عرضوه، فليعرضوا أمراً ممكن الحصول، وترضاه فطرة البشر، وينسجم مع ما تقضي به العقول.

وحين انسدت أمامهم السبل لجأوا إلى سلاح العاجز عن الاعتراف بالحق، الذي يمارس الظلم والعدوان والجريمة لتغطية عجزه..

---

(1) الآية 3 و4 من سورة النجم.

الفصل الثاني:

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا

بداية:

بالنسبة لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ نقول:

قد ذكرنا بعض ما يرتبط بهذه الآية المباركة في تفسير سورة الفاتحة، فنحن نكتفي بما ذكرناه هناك، ونحيل القارئ إليه.. إن أحب الاطلاع عليه.

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ:

قُلْ: لقد بدأت هذه السورة بكلمة «قُلْ»، وهي الكلمة التي بدأت بها سورة الإخلاص، والفلق، والناس أيضاً.

فلا بأس بمراجعة ما ذكرناه حول هذه الكلمة بالخصوص في تلك السور الثلاث أيضاً..

ونقول هنا:

لقد قلنا: إن بعض الناس حاول أن يثير شبهة حول موقعية «قُلْ» في هذه السور الأربع التي أشرنا إليها، ومنها سورة «الكافرون»، فزعم أنها يجب أن لا تكون جزءاً من الآيات، وليست قرآناً، بل يكون القرآن هو ما بعد كلمة «قُلْ».

وهو كلام باطل:

أولاً: لأننا لو أسقطنا كلمة «قُلْ» من هذه السور: الكافرون، والفلق،

والناس، لتغير المعنى إلى معنى فاسد ليس هو المقصود، ولا يصح الالتزام به.. لأن وجود كلمة «قُلْ» يدل على أن مدخولها هو من كلام المخاطَب، وهو رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لا من كلام الله.. وبدون كلمة «قُلْ» يصير الكلام صادراً عن الله تبارك وتعالى، لأن المفروض أن الآيات نازلة من عنده.

فيصير المعنى: أن الله تعالى يقول عن نفسه: إنه لا يعبد ما يعبده الكافرون، وإنه يعوذ برب الفلق، ويعوذ برب الناس.. وهذا كلام باطل وفاسد بلا ريب.

ثانياً: إننا للتوضيح بالمثال نقول:

لو كتب أحد رسالة إلى صديقه، أو أخيه، يقول له فيها: قل لفلان: يشتري لنا سيارة، وقل لفلان الآخر: أن يعطي ولدي هذا المقدار من المال، فكلمة «قُلْ» هي من الرسالة، ولكنها ليست جزءاً من مدخولها، أي ليست جزءاً من المال الذي أمر بدفعه، ولا هي جزء من السيارة التي أمر بشرائها.. وهذا واضح..

ثالثاً: إن كلمة «قُلْ» تريد أن تفهم المخَاطبين أن عليهم أن لا يتوهموا، وأن لا يوهموا الناس أنه «صلى الله عليه وآله» يأتي بالأمور من عند نفسه، بعيداً عن الوحي، وعن التوجيه والأمر الإلهي.

فكلمة «قُلْ» تنقض هذا الوهم. ويتأكد ذلك حين تكون جزءاً من سورة جامعة لعناصر الإعجاز والتحدي المصرح به في عدة آيات قرآنية.. تتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، مهما صغر حجمها.

وببيان آخر نقول:

إن من أبده البديهيات عند العقول السليمة، والفطرة المستقيمة، وفي شرائع الدين، وعند أهل الدين: أن المؤمن ـ فكيف إذا كان نبياً ـ لا يمكن أن يعبد الصنم، أو أي شيء غير الله تبارك وتعالى، وأن من يعبد الصنم، ويرى أنه الرازق والشافي، والمدبر، والمهيمن، والمسيطر لا يعبد الله سبحانه.

إذن.. فقد كان من الطبيعي أن يرفض النبي «صلى الله عليه وآله» عرض المشركين عليه: أن يعبد أصنامهم، أو أن يستلم بعضها، ولا ينتظر نزول هذه السورة عليه، إذ لا يعقل أن يستجيب لطلبهم، وينقض ما جاءهم به.

ولكنه حين أعلن لهم أنه ينتظر الوحي أثبت لهم: أنه ليس بالذي يبتدع من عند نفسه، بل هو كما قال تعالى عنه: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[1].

يَا أَيُّهَا:

وقد خاطب الله تعالى أولئك الناس، بالأداة التي يخاطب بها المتوسط، وهي: ﴿**يَا أَيُّهَا**﴾. فهل المراد: الإشارة إلى بعدهم عن ساحة الكرامة؟!

أو المراد: إبعادهم عن الرحمة، واستحقاق اللطف، والعون؟!

أو المراد: الإيحاء بأنهم بعيدون عن السمع المجدي والمفيد لهم، على قاعدة: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾[2]. فكأنهم غير موجودين في محضر الخطاب؟!

---

(1) الآية 3 و4 من سورة النجم.

(2) الآية 7 من سورة البقرة.

إن كل ذلك قد يكون مراداً.

وربما كان هذا هو السبب في أنه سبحانه أراد إيقاظهم من غفلتهم من خلال أربعة أمور:

الأول: الاستفادة من كلمة «يا» التي هي لنداء المتوسط الذي هو في منأى عن محضر الخطاب.

الثاني: الاستفادة من كلمة «أي» المبهمة التي هي نكرة مقصودة.

الثالث: الاستفادة من «هاء» التنبيه التي كان يجب أن تكون في أول الكلام، لولا مزاحمتها بما له صدر الكلام أيضاً، فلم توضع قبل الاسم المبهم، وهو «أي»، فجعلت في آخر الكلمة، لا في أولها، كما هو الحال في «هذا» وهؤلاء، وهاذاك.

ويجاب:

بأن كلمة «أي» تضاف إلى ما بعدها.. فلولا أن هاء التنبيه فصلت بينها وبين «الكافرون» لتوهم أن كلمة أي مضافة إلى الكافرون.

الرابع: أنه أطلق عليهم وصفاً مثيراً وغير محبب لهم كي يحفزهم لإعادة النظر في وضعهم، حيث وصفهم بأنهم الكافرون، وهو الوصف الذي لا يرضاه أهل المذاهب والأديان المختلفة لأنفسهم، ويسعى كل منهم لإثباته على الطرف الآخر.

أي أنه أراد أن يظهر: أن الطرف الآخر هو الذي ستر الحق، بالرغم من علمه به، ودلَّس على الناس.. وهذه مذمة توجب النفور، وتثير الشكوك في صدق من يوصم بها..

وقد قرن هذا الوصف بـ «ال» التعريف، أو فقل: بـ «ال» الحقيقة، ليدل على أنهم هم الكافرون الحقيقيون.

وإن قال بعضهم: بأنها لام العهد[1]، لأنه يرى أن المراد بالكافرين جماعة مخصوصة.

وهذا يعطي: أنه تعالى يريد للمؤثرات البيانية أن تفعل فعلها في نفوسهم، وتوقظ وجدانهم، وتثير مشاعرهم.. ولأجل ذلك لم يقل ـ مثلاً ـ: قل للكافرين لا أعبد ما تعبدون..

الكافرون لماذا؟!:

والسبب في ذلك: أن كفرهم ليس مجرد فعل ناشئ عن غفلة، أو سذاجة، بل هو متعمد، ولاسيما من كبارهم، فإنهم يمارسون كفرهم عن معرفة وإدراك، ويحاولون التدليس على الناس وعلى أنفسهم، وهم يحاولون دفع وصف الكفر عن أنفسهم حين يزعمون أنهم يوقنون بالله الخالق، ولكنهم يعبدون الأصنام، لأنها تقربهم إلى الله زلفى، وتتولى قضاء حوائجهم، وحلّ مشاكلهم، وشفاء مرضاهم، وما إلى ذلك، فهم ليسوا بكافرين.

ولكنه سبحانه تعالى قد وصفهم بالكافرين وهو يخاطبهم في هذه السورة، فأوضح: أنهم يتعمدون إخفاء الحقائق، والتمويه على الناس، لأنهم يخفون حقيقة أن الخالق والرازق، والكافي والشافي، والصمد، والعالم، والقادر، والحي القيوم هو الله.

(1) الميزان (تفسير) ج20 ص373 والأمثل (تفسير) ج20 ص511.

ويحاولون ادِّعاءها لأحجار أو أخشاب صماء بكماء، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع.

ولذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾[1].. فهم الكافرون حتماً، فإنهم يزعمون الهدى لأنفسهم، مع أنهم يمارسون الكفر بأفحش معانيه، فهم يضلون ويظلمون أنفسهم، ويظلمون الناس، ويظلمون الحقيقة، ويظلمون.. ويظلمون..

على أن من الـواضح: أن الكفر والإيمان هما من شـؤون الأفـراد، ومن قراراتهم التي يتخذونها لأنفسهم، فـإذا خاطبهم بأحـد هذين الوصفين، أعني وصف المؤمن، أو الكافر.. فسيرى كل فرد منهم: أنه معني بشخصه بهذا الخطاب، فإذا كان الوصف هو الكفر مثلاً، فسيحاول أن يجد الحلول والمخارج لنفسه منه، بصورة أكثر جدية وحيوية.

أما لو كان الخطاب موجهاً لهم: بعنوان الناس مثلاً، أو باسم قبائلهم، أو بلدانهم، كأن يقول: يا أهل الحجاز، أو يا أهل مكة، أو يا قريش، فإن الأفراد لا يشعرون أنهم معنيون كثيراً بالخطاب، وتظهر فيهم حالة التواكل في المواجهة وفي السعي لإيجاد المخارج، لأن الشعور بالمشكلة يكون في هذه الحال ضئيلاً، وهزيلاً..

(1) الآية 14 من سورة النمل.

لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ:

ثم قال تعالى: ﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾.. ويظهر من كلمات المفسرين: اعتبار هذه الآية، والآيات التي بعدها إلى آخر السورة من دلائل نبوته «صلى الله عليه وآله»، لأنها تتضمن إخباراً غيبياً عن الكافرين: أنهم لم يؤمنوا في الماضي، ولن يؤمنوا في الحال والاستقبال، إلى آخر الدهر.

فلما واجههم الاعتراض الذي يقول: إن بعض أولئك الكافرين قد آمنوا.

أجابوا: بأن المقصود بالكافرين هو جماعة مخصوصة منهم، لم تؤمن إلى آخر العمر[1].

فقد يقال: إن هذا إخبار عن أن فعل العبادة، لن يحصل منهم أو منه «صلى الله عليه وآله» أبداً، وإن كانوا قادرين على هذا الأمر..

غير أننا نقول:

إن هذه الآية لا تخبر عن أمر ممكن، قد يقع، وقد لا يقع، ليكون المعنى: هو الإخبار عن الإمتناع عن فعل هذا الأمر، إختياراً، أي أنكم لا تفعلونه، والنبي لا يفعله، بل هي تتحدث عن استحالة حدوث هذا الأمر منه «صلى الله عليه وآله»، ومن الكافرين أيضاً.

وقد قال بعض الإخوة الأكارم:

وما أشبه هذا المعنى بقول سيد الشهداء «عليه السلام»: «ومثلي لا يبايع مثله».

---

(1) الميزان (تفسير) ج20 ص373 والأمثل (تفسير) ج20 ص462 وإعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش ج8 ص434 عن ابن خالويه.

ويمكن الاستفادة من قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾(1). انتهى كلامه..

وتوضيح ذلك: أن قوام العبادة هو قناعة العابد باستحقاق معبوده لها، من حيث جامعيته للصفات، والسمات التي تجعله يخضع لهذا المعبود، ويرى فيه الغنى، والقدرة، والتفرد، وما إلى ذلك.. ولاسيما فيما يرتبط برازقيته وحله المشكلات، وتذليل المعضلات، ويبلِّغ العابد إلى كل مراداته، ويقضي له حاجاته.

فإذا كان النبي «صلى الله عليه وآله» يعتقد أن الله سبحانه هو المستحق العبادة دون سواه، لتفرده بجامعيته لصفات وسمات المعبود، وكونه الخالق والرازق، والعالم والقوي، والغني وما إلى ذلك..

ويرى أن غيره فاقد لكل ذلك، فكيف يمكن أن يخضع ويعبد هذا الفاقد العاجز، بكل ما لهذه الكلمات من معنى، وهو مجرد حجر أو خشب، وأصنام صماء وبكماء.. لا يمكن أن تخلق وترزق، وتحل المشكلات، وما إلى ذلك؟!

إذ لا يمكن الجمع بين هاتين القناعتين المتناقضتين في نفس من يحترم نفسه.

كما أن من يعتقد: أن الأصنام هي التي تقرر، وتدبر، وترزق، وتشفي، وتتصرف في الموجودات التي تستحق العبادة دون سواها كيف يعبد من لا يرى فيه شيئاً من هذه السمات والصفات التي يتوخاها في معبوده؟!

فالموضوع يرتبط باليقين والقناعة، ولا يمكن حصول يقين بأمرين

(1) الآية 4 من سورة الأحزاب.

متباينين ومتناقضين، او يوصلان إلى اجتماع النقيضين والمتباينين.. فلا يمكن أن يعبد النبي الله، ويعبد الصنم، لأن عبادة الصنم عبادة حقيقية لا تجتمع تكويناً مع عبادة الله.. كذلك لأن اليقين بأحدهما ينفي اليقين بالآخر.

كما أن الكافر إذا كان متيقناً باستحقاق الصنم للعبادة، فإنه لا يمكن أن يتكون في نفسه يقين آخر باستحقاق غيرها لها.. ولازم هذا هو: عدم إمكان حصول العبادة منه هو انتفاء عبادته لله في الماضي والحال والمستقبل إلى يوم القيامة.

وقد قال الشاعر:

ومُكلّفُ الأيام ضد طباعها مُتطلبٌ في الماء جذوة نار

بطلان مطالبهم:

وهذا البيان يدل على أن ما عرضوه على رسول الله «صلى الله عليه وآله»: بأن يعبد آلهتهم سنة، ويعبد الكافرون إلهه سنة لا يمكن حصوله.

فاقتراح ذلك على رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا مبرر له، بل هو اقتراح تفوح منه رائحة الخداع للنبي «صلى الله عليه وآله»، إن لم نقل: إن الأمر أبعد من ذلك أيضاً.. ليصل إلى حد التأسيس للطعن في كل ما جاء به.

مَا تَعْبُدُونَ:

ثم إنهم يقولون: إن كلمة «ما» تستعمل للدلالة على غير العاقل، و «من» تستعمل للدلالة على العاقل، فيقال: إن كلمة «ما» في قوله: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ**﴾ قد وقعت في محلها، لأن أصنامهم لم تكن عاقلة.. فالتعبير بكلمة «ما» هو

المناسب والمطلوب.

ولكننا نقول:

إن كلمة «ما» الموصولة هي بمثابة تعبير مبهم عن موجود ـ أو شيء ـ ما.. فقد يكون هذا الموجود عاقلاً، وقد يكون غير عاقل.

ويشهد لذلك: أنه حين استعمال كلمة «ما» فيما يشمل العقلاء، أو في خصوص العقلاء لا يكون الاستعمال مجازياً، ولا نرى أن ثمة حاجة إلى قرينة صارفة.

وقد جاء استعمالها في القرآن الكريم في العاقل في موارد كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ**﴾[1]، وآيات كثيرة وردت فيها عبارة ﴿**مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾[2]، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[3]، مع أن هؤلاء من العقلاء، سواء أكانوا نساءاً، أو رجالاً.

عود على بدء:

وإذا عدنا إلى قولهم: إن الوقائع قد أثبتت أن من أولئك الكفار من قد أسلم، فكيف تقول الآية: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ فقد عبدوا ما عبده

(1) الآية 22 من سورة النساء.

(2) الآية 3 و 24 و 25 و 36 من سورة النساء، والآية 33 و 58 من سورة النور، والآية 28 من سورة النور.

(3) الآيتان 7 و 8 من سورة الشمس.

رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد أن أسلموا.. فإن كان يخبر عن استحالة ذلك، فقد حصل هذا المستحيل فعلاً، والوقوع أدل دليل على الإمكان، وإن كان تعالى يخبر عن أن عبادتهم سوف لن تقع.. فالمفروض أنها بعد إسلامهم قد وقعت.

وجوابه:

أنه يخبر عن الاستحالة المستندة إلى عدم إمكان الاعتقاد بألوهية الله، ما داموا معتقدين بألوهية أصنامهم، لأن اعتقادهم بألوهية أصنامهم لا يجامع اعتقادهم بالله لكي يتمكنوا من عبادته تعالى، لاستحالة اجتماع اليقينين المتضادين، اللذين ينتجان عبادتين حقيقيتين، أو خضوعاً، روحياً وعقلياً، ونفسياً، ووجدانياً، وفكرياً لهذا وذاك..

وهذه الاستحالة ناشئة عن إصرارهم على باطلهم، فإن الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، إذ من المعلوم: أنهم يمكنهم اختيار الإسلام، والتخلي عن الأصنام، وعن قولهم باستحقاقها للعبادة، ليحل محلها يقين جديد بألوهية الله، لا يزاحمه يقين آخر، لأنه يكون قد زال من أساسه.

وبذلك ينقلب الخطاب من كونه مع الكافرين، ليصبح مع المؤمنين، بما يناسب حالهم واعتقادهم.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ:

وبهذا بالذات يجاب عن الاعتراض بالآية التي في سورة يس، والتي تقول:

﴿**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾(1).. فإن بعض المفسرين قال: إن هذه الآية منسجمة مع قوله: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ مع أنه يقول: إن المراد بآية: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾: أنهم سوف يمتنعون من العبادة باختيارهم(2).

ونقول:

إن ظاهر قوله: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾: أن جميعهم سوف يختارون عدم عبادة الله، لا بعضهم.. وآية سورة يس، تقول: إن أكثرهم لا يؤمنون لا كلهم..

فكلام هذا المفسر غير تام..

يضاف إلى ذلك: ما ذكرناه، من أن المقصود بآية الكافرون: هو عدم إمكان عبادة الصنم على الحقيقة، وعبادة الله على الحقيقة.. لأن عبادة الله من المشرك، أو الكافر تتوقف على زوال كفره وشركه، وأن لا يعتقد بأن للأحجار والأخشاب وغيرها من الأصنام شيئاً تستحق به العبادة.

وآية سورة يس.. تتحدث عن أن بعضهم سوف يختار الإيمان، فلا تكون هناك أية مشكلة لعدم مزاحمة اليقين بالله بأي يقين آخر..

وعلى حد تعبير بعض الإخوة الأكارم:

---

(1) الآية 7 من سورة يس.

(2) الميزان (تفسير) ج20 ص374.

«ولعله يصح القول: بأن آية الكافرون تساوي قضية حقيقية، مفادها: أنه لا تجتمع القناعة بألوهيته تعالى وألوهية غيره في قلب واحد.. وهذه قضية تامة، ولا استثناء فيها.

وأما آية سورة يس، فتتحدث عن قضية خارجية، مفادها: أن أكثرهم في الخارج ختم على قلوبهم، فلن يختاروا الإيمان.. وبعضهم ليسوا كذلك» انتهى.

البراءة من الشرك:

قلنا: إن سورة التوبة قد صرحت بالبراءة من المشركين، وأن سورة الكافرون، تتحدث عن البراءة من الكفر، الذي يجتمع مع الشرك في خندق واحد أيضاً.

ولعل من إلماحات هذه السورة المباركة: أنها تضمنت درساً قوياً وحاسماً فيما يرتبط بالبراءة من عبادة غير الله، وتسجيل موقف علني وحاسم فيما يرتبط بهذا الأمر.

فدلنا ذلك: على مطلوبية انضمام الإقرار العلني، والجهر بالقناعة الاعتقادية برفض عبادة غير الله إلى الرفض القلبي والفكري.

ولذا قبّح الله وأدان فعل من يتيقن بالحقائق، ثم يجحدها بلسانه، فقال: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾[1].

فدل بذلك: على أن اليقين القلبي، والقناعة الفكرية، ولو استند إلى الدليل لا يفيد شيئاً إذا صاحبه جحود لساني ظاهري، فكيف إذا انضم إليه

(1) الآية 14 من سورة النمل.

الجحود في الممارسة والعمل أيضاً؟!

وقد يشهد لذلك أيضاً: أن إبراهيم «عليه السلام» قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً**﴾[1].

فقرر إبراهيم «عليه السلام»: أن القناعة العقلية والفكرية متوفرة لديه، كما أن عقد القلب على الحقيقة المرضية عقلياً، أو فكرياً حاصل.. فلا يوجد أي شيء يضر بسلامة وصحة الإيمان..

ولكن الذي يربط على القلوب، ويمنحها الطمأنينة والسكينة، ويقوي الإيمان، ويصبح أكثر صلابة ومناعة: هو التجسيد العملي للمعنى الإيماني.

وهذا نظير من يعيش في مجتمع إيماني ملتزم، وليس فيه مغريات، ومثيرات للشهوات، فإن الالتزام في محيط كهذا يكون أسهل وأيسر مما لو عاش في محيط زاخر بالشهوات، والمحفزات للوقوع في الخطيئة، فإن هذا المحيط هو الأشد خطورة على الإنسان المؤمن الذي لم يتعمق الإيمان في داخل نفسه..

ولأجل ذلك نلاحظ: أن الأنبياء الذين يواجهون التحديات الكبرى، ولاسيما مع الفراعنة والجبارين، يحتاجون إلى درجة أقوى من التحمل والصبر من غيرهم، ممن لا يواجهون تحديات بهذا الحجم، ولهذا كان هناك أنبياء من

(1) الآية 260 من سورة البقرة.

أولي العزم، وكان فيهم من قال الله تعالى عنه: ﴿لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[1].

وكما أن اليقين القلبي لا يكفي، فإن الطهارة القلبية لا تكفي أيضاً، بل لا بد من أن تصاحبها طهارة عملية، ولسانية، ووجدانية، وفكرية.. إذ ليس لأحد أن يرتكب الفواحش كالزنا، والقتل، وشرب الخمر، ويزعم: أنه لم يذنب، لأنه طاهر القلب، فالمطلوب هو انسجام الفكر، والقول، والعمل، والنية، والمشاعر، وما إلى ذلك.

(1) الآية 115 من سورة طه.

الفصل الثالث:

وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا

بداية:

وينتهي بنا الحديث إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾.

ولا نرى حاجة إلى إعادة ما ذكرناه من أن هذا النفي ناظر إلى تقرير معنى استحالة اجتماع العبادة لله، المتوقف على اليقين بتفرده تعالى في صفات الكمال، والغنى، والقدرة، والعلم، وسوى ذلك، وبين عبادة الصنم، والحجر، والخشب الذي يحتاج إلى اليقين بأن المعاني المشار إليها موجودة فيه، ومنفية عن كل ما عداه.

غير أن هنا أموراً أخرى تحتاج إلى بيان، نذكر منها ما يلي:

وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ:

1 ـ إنه تعالى قال: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ**﴾. فكلمة «لا» النافية هنا تفيد نفي مدخولها في المستقبل، كما أن «ما» لنفي الحال، والمعنى: لا أعبد أبداً ما تعبدونه اليوم من الأصنام[1].

ولعل مما يساعد على النفي في الحال وفي المستقبل:

أولاً: إن اسم الفاعل إذا كان عاملاً انصرف إلى الحال، فإذا دخلت

---

(1) الميزان (تفسير) ج20 ص374 وإعراب القرآن الكريم لمحي الدين الدرويش ج8 ص432 و 433 عن الزمخشري، وأبي حيان.

عليه كلمة «لا» امتد النفي للاستقبال.

ثانياً: إن اجتماع عباداتهم للصنم، مع عبادة الله مستحيلة كما بيناه أكثر من مرة.

ثالثاً: إن الجملة الإسمية تفيد الثبات والدوام.

رابعاً: إن ظاهر قوله: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ**﴾: أن النفي بكلمة «لا» قد انصب على العبادة بما لها من معنى حقيقي، وهو مفاد اسم الفاعل العامل، الدال على الحال، وشموله للاستقبال ليس بسبب اسم الفاعل، بل بمعونة «لا» الدالة على الاستقبال، والجملة الإسمية، ولأن نفي حقيقة العبادة، إنما يتحقق بانتفاء جميع أفرادها، حاضراً ومستقبلاً، إذ لو وجد فرد واحد من أفراد الطبيعة لم يتحقق النفي.

2 ـ ولو أنه تعالى قال: ولا تعبدون ما أعبد لفاتت خصوصية الثبات والدوام، الذي يفهم من الجملة الإسمية في قوله: ﴿**أَنْتُمْ عَابِدُونَ**﴾، لأن الجملة الفعلية المشار إليها، لا تفيد ذلك، بل تفيد التجدد والحدوث، وهذا يساعد على فهم الانتفاء في الحاضر وفي المستقبل من كلمة «لا» النافية، كما قدمناه.

مَا أَعْبُدُ:

وكلمة: «ما» في قوله تعالى: ﴿**مَا أَعْبُدُ**﴾ قد أطلقت هنا على ذات الباري.

وهذا يدل:

أولاً: على أنها ليست خاصة بغير العقلاء، وقد تقدمت الإشارة إلى أن كلمة «ما» في آيات كثيرة، منها: ﴿**مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ قد استعملت في

خصوص العقلاء، وكذلك الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ**﴾. وقوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾.

ثانياً: أشرنا فيما تقدم إلى أن كلمة «ما» تشير إلى معنى مبهم، مثل شيء أو موجود أو نحو ذلك، والعاقل شيء وموجود، وغير العاقل أيضاً شيء وموجود، فيصح استعمال كلمة «مَا» في العاقل، وغيره.. كما يصح استعمالها فيما اشتمل عليهما معاً.

ولعل مما يشهد لذلك: أننا لا نشعر بأن ثمة تنزيلاً، أو ادِّعاءً، أو مجازية وحاجة إلى القرينة حين تستعمل «ما» في خصوص العقلاء.

لماذا لم يقل: من أعبد؟!:

وقـد يسأل سائل عن أنه تعالى لم يقل: ولا أنتم عابدون من أعبد، فلماذا، وما السبب؟!

وأجيب أولاً:

بأنه أراد مراعاة الانسجام في السياق، حيث إن كلمة «ما» في قوله: ﴿**مَا أَعْبُدُ**﴾ تطابق «ما» في قوله تعالى: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ**﴾»[1].

ونقول:

في هذا الجواب مناقشة مفادها: أنه لا يصح مراعاة التطابق اللفظي،

(1) الميزان (تفسير) ج20 ص374 وإعراب القرآن الكريم للدرويش ج8 ص432 و 433.

والتطابق بين كلمات الآيات، إذا كان ذلك يفوِّت خصوصيات لها مكانها الأصيل في المضمون.

والصحيح أن يجاب:

بالنسبة لكلمة «ما» نلاحظ ما يلي:

1 ـ إن كلمة «ما» إذا كانت تستعمل في العاقل وغير العاقل، فلا يبقى مجال للسؤال عن سبب استعمالها، وإرادة ذات الباري منها، ولا يبقى حاجة إلى استبدالها بكلمة «من».

2 ـ إن كلمة «من» هي مثل كلمة «ما» في كونه إسماً مبهماً.. يراد به الشيء، أو الموجود.. إلى آخر ما قلناه.

وكثرة استعمال الناس لها في العاقل، قد لا يكون سببها وضع لفظها لخصوص العاقل، فلعل سببه كثرة الحاجة، أو لعل سببه الرغبة في التفريق بين المعاني من خلال الالتزام العملي بتخصيص بعض الألفاظ بها ، وإن لم يخصصها الواضع.. وقد يكون السبب غير ذلك.

وبالنسبة لكلمة «من» نلاحظ ما يلي:

1 ـ إن من موارد استعمال «من» في غير العاقل: قول العباس بن الأحنف:

أَسِرْبَ القَطا هَل من مُعيرٍ جَناحَهُ لعلّي إلى من قد هَوِيتُ أطيرُ

وقول امرئ القيس:

أَلاَ عِمْ صَباحاً أَيُّهاَ الطَّلَلُ البَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي العُصُرِ الخَالِي

إلا أن يقال: إنه قد نزَّل القطا والطلل منزلة العاقل، فخاطبهما بما يخاطب

به العقلاء.

2 ـ إن المثال الأوضح والأصرح الذي لا مجال للتأويل فيه: هو قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾[1].

والدابة هي: كل ما يدب، ودب من الحيوان[2].. فلا يشمل الملائكة ولا الجن، ولا يختص بالبشر.

ويؤيد ذلك أيضاً: أنه تعالى يتحدث عن الدواب المخلوقة من ماء، والجن مخلوق من مارج من نار.. فلا معنى لتخصيص الأقسام المذكورة بالعقلاء، من الجن والأنس.

وأجيب ثانياً:

بأن الاستفادة من كلمة «ما» للدلالة على العاقل، وإطلاقها على الباري سبحانه هنا قد جاء على سبيل التعظيم[3].

ونقول:

إننا لم نستطع أن نفهم كيف يكون استعمال كلمة «ما» للدلالة على ذات الباري قد جاء على سبيل التعظيم!!

---

(1) الآية 45 من سورة النور.

(2) راجع: أقرب الموارد ج1 ص316.

(3) إعراب القرآن الكريم لمحي الدين الدرويش ج8 ص431.

إلا إن كان يقصد: أن العدول عن كلمة «من» الخاصة بالعاقل إلى كلمة «مَا» التي يقصد بها غير العاقل يتضمن إيغالاً في الإبهام بهدف إفهام المخاطب أنه يتحدث عن شيء عظيم، لا تدركه الأفهام، ولا تناله الأوهام، وليس محسوساً كالأصنام..

ومن يكون كذلك، يكون في غاية العظمة، لأنه يكون متفرداً في صفاته وفي جميع حالاته.

أَعْبُدُ.. لماذا؟!:

وقد قال تعالى: ﴿**مَا أَعْبُدُ**﴾، بصيغة الفعل المضارع، ولم يقل: ما عبدت، أو معبودي..

ولعل سبب ذلك أحد أمرين، أو كلاهما:

الأول: أنه لا يريد أن يساوي في تقرير مضمون الكلام بين معبوده وأصنامهم.. حتى لو كان ذلك في سياق الرفض الذي تكفي فيه الإشارة إلى الطرف الآخر، بأي نحو كان..

فإن ذلك قد يوهم بعض السذج بما لا يجب، حتى أن يمر في وهم أحد، ولو عرضاً، للحظة أو لحظات..

الثاني: إن الحديث هو عن النبي «صلى الله عليه وآله»، الذي هو في حال عبادة مستمرة، في كل لحظات حياته، حتى في حال نومه ويقظته، وقيامه وقعوده وأكله وشربه، وما إلى ذلك..

فهو دائماً في محضر الله، وفي حالة طاعة وعبادة وتقديس لله تعالى..

فلو قال: لا تعبدون معبودي مثلاً، لفاتت الإشارة لهذه الخصوصية الجميلة والجليلة التي ترتبط بالاعتقاد، وبمعرفة النبي «صلى الله عليه وآله» وحالاته مع الله.. فكلمة ﴿أَعْبُدُ﴾ فعل مضارع يفيد: أن العبادة لله سبحانه وتعالى منه «صلى الله عليه وآله» تحصل في الحال..

أما كلمة «معبودي»، فلا تفيد فعلية صدور العبادة منه، إذ قد يكون المقصود بهذه الكلمة التي بنى على تخصيصها بالعبادة في الأوقات التي يختارها للقيام بهذا الفعل، وفي أوقات قد تتقارب، وقد تتباعد.

وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ:

وقد تضمن قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أموراً يحسن التوقف عندها.

ونذكر منها:

وَلا أَنَا عَابِدٌ:

سبق منا: أن السبب في أنه تعالى لم يقل: لا أعبد ما عبدتم: أن هذا التعبير بالفعل المضارع يدل على رفض هذا الفعل.. في الحال، فلعله رفضه عناداً، أو لأنه يخشى من عدم وفائهم بوعدهم، أو لغير ذلك.. لاسيما وأن الفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث.. مما يعني: أنه لم يكن يعبد، ثم صار يعبد.

ولكنه حين قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾.. فكلمة «لا» التي تنفي الوقوع في المستقبل قد جاءت في ضمن جملة إسمية تدل على الثبوت والدوام..

وهذا يفيد تأكيد النفي في المستقبل..

فإذا انضم إلى هذا وذاك أمر ثالث، وهو: أن المطلوب هو تقرير معنى استحالة صدور العبادة منه «صلى الله عليه وآله» لأصنامهم، لأن ذلك يقتضي الجمع بين الضدين المتباينين كما تقدم، فإن الأمر يصبح أكثر وضوحاً، فيما يرتبط بضرورة الالتزام بالجملة الإسمية في هذا المورد.

فإذا عطفنا على هذا: أنهم يقولون: إن اسم الفاعل العامل يدل على الحال.. إلا أن النفي بكلمة «لا» التي تنفي ما في المستقبل، وكذلك دلالة الجملة الإسمية على الثبوت والدوام.. فضلاً عن أن التأكيد على معنى الاستحالة لا ينافي نفي الحال أيضاً بسبب اسم الفاعل، بل هو المطلوب هنا.. فإن المعنى يكون أصرح في المطلوب.

مَا عَبَدْتُمْ:

وقوله: ﴿**مَا عَبَدْتُمْ**﴾ يستدرج سؤالاً آخر يقول: لماذا لم يقل: ما تعبدون، كما قال في آية سابقة: ﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾؟!

ويجاب:

بأن قوله قبل ذلك: ﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ يمثل رداً صريحاً لما عرضوه عليه، من أن يعبد أصنامهم سنة، ثم يعبدون إلهه سنة، وكانوا إلى تلك اللحظة يعبدون أصنامهم.. وهم يقترحون: أن يبقوا على هذه الحال طيلة السنة التالية أيضاً، فمن الطبيعي أن يصرح برفض مشاركتهم فيما يمارسونه من عبادة فعلية، ويعطون أنفسهم الحق في الاستمرار عليه.

ولكنه بعد تجاوز هذه المرحلة، والتأكيد في الآية الثالثة على نفي عبادتهم

لله تعالى حاضراً ومستقبلاً، لاستحالة حصول ذلك منهم، بسبب استمرار عبادتهم للأصنام.. أراد أن يقرر أيضاً: استحالة حصول ذلك منه «صلى الله عليه وآله»، فقوله هنا: ﴿**مَا عَبَدْتُمْ**﴾ يشير إلى أن هذه العبادة قد حصلت منهم بلا ريب.

ولو قال: ما تعبدون، فربما فهم منه أنه يرفض عبادة ما سوف يعبدونه في المستقبل، وهو قد يكون عبادتهم لله، وفق ما اقترحوه على النبي «صلى الله عليه وآله»، من أنهم سوف يعبدون إلهه سنة..

أو يُفهم منه: أنه يرفض عبادة ما يعبدونه الآن.

ولعلهم يدَّعون: أنهم الآن لا يعبدون شيئاً، وإنما هم بانتظار ما يسفر عنه ما اقترحوه عليه، أو يدَّعون أنهم قد شرعوا بعبادة الله، أو ما إلى ذلك.. ولا يريد هو «صلى الله عليه وآله» أن يظهر منه: أنه يرفض هذا ولا الذي قبله.

ولكنه حين قال: ﴿**مَا عَبَدْتُمْ**﴾ يكون قد حسم الأمر في الدلالة على عبادتهم الأصنام قطعاً، لأنها قد صدرت منهم في الماضي بلا ريب..

وربما كان الحديث عنهم بصيغة الفعل الماضي، يهدف إلى فسح المجال أمام من يريد أن يُسلِم منهم، وينتقل إلى عبادة الله سبحانه.

الفصل الرابع:

وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ

وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ:

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ ليؤكد الآية الثالثة لفظاً ومعنى.. وقد تحدثنا عن مفاد هذه الآية فيما سبق.

وما ذكرناه هناك قد يغني عن إعادته هنا، فما علينا إلا أن نكتفي بالتذكير:

1 ـ بأن ما قدمناه حين الحديث عن شأن نزول السورة قد بيَّن لنا: أن آيات هذه السورة قد جاءت متوافقة مع ما عرضه الملأ من قريش على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

2 ـ أشرنا آنفاً إلى أن الله تعالى أمر نبيه الكريم «صلى الله عليه وآله»: بأن يقول للكفار عن نفسه: ﴿**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ**﴾ بصيغة الفعل الماضي ﴿**عَبَدْتُمْ**﴾.. وإن اختيار هذه الصيغة له أسباب، منها:

أنه تعالى يريد أن يفسح المجال أمام تأثير الهدايات الإلهية في بعض أولئك الكافرين، فيختارون دين الإسلام، ويعبدون الله تعالى..

ولكنه يقول للكفار أنفسهم: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ بصيغة الفعل المضارع في الآية التي كررها مرتين، حيث قال: ﴿**أَعْبُدُ**﴾..

ولعله ليشير ـ كما قدمنا أيضاً ـ: إلى أن عبادته لله في الحال وفي المستقبل ثابتة ودائمة، لا تتغير ولا تتبدل.

3 ـ ويؤكد هذا المعنى: أن الآية قد تكررت مرتين، بهدف التأكيد على مضمونها تماماً، كالتأكيد المتكرر في سورة الرحمان بتكرار آية: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾، وفي سورة المرسلات بتكرار آية: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ وغير ذلك..

4 ـ تقدمت الرواية التي تقول: إن المشركين عرضوا على رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يعبدوا إلهه سنة، ويعبد آلهتهم وأصنامهم سنة.. وقد زعم بعضهم: أن هذه دعوة منهم للمهادنة، والتسامح، والمرونة في العبادة.

فجاء الرد عليهم ليؤكد رفض هذا العرض جملة وتفصيلاً، وقد كررت الآيات هذا الرفض بعبارات متقاربة، أو متوافقة.. وهذا يدل على أنه لا مساومة ولا حلول وسطية، ولا مهادنة في أمر العقيدة.. والرواية التي تحدثت عما جرى بين الديصاني، ومؤمن الطاق قد أوضحت أن الآيات قد أجابت على كل فقرة وردت في كلام المشركين مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالرفض القاطع والجازم، والحازم والحاسم لمفادها.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ:

1 ـ ونصل إلى قوله تعالى أخيراً: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾، وكأن هذه الآية تمثل خلاصة جامعة لرفض أي نوع من أنواع المساومة والمهادنة والتعايش بين الشرك والإيمان، فهما منهجان لا يلتقيان، لأن أي نوع من أنواع المسالمة

والمهادنة يستبطن الرضا بالشرك، وبعبادة الأصنام. وهو الأمر الذي تقول الآيات المباركة عنه: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾(1).. والشرك هو الظلم العظيم الذي لا يمكن أن يرضى به الله تعالى.. وتعاليم دينه الحنيف، وآيات كتابه تدل على مدى عداوة الإسلام مع الظالمين، فكيف يرضى بممارسة الظلم العظيم في المحيط الذي هو فيه، فثمرات الشرك هو الظلم العظيم، وثمرات الإيمان هي الرضوان الأكبر، قال تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾(2).. ونفس كلمة «ظلم» تعطي معنى القبح، وتشي بالمبغوضية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾(3). وقد تبرأ الله ورسوله من المشركين في سورة التوبة، وأمر بقتلهم في قوله: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾(4).

فظهر من هذا الإصرار على الإفتراق في العبادة: أنه لا مبرر لتوهم: أن الآيات الأخيرة من سورة «الكافرون» تقول: أنتم تدينون بعبادة أصنامكم، ونحن ندين بديننا، فلا خلاف ولا مشكلة بيننا وبينكم.

2 ـ إن هذا التحدي بالرفض، والتأكيد عليه أكثر من مرة في سورة لا

(1) الآية 48 من سورة النساء.

(2) الآية 72 من سورة التوبة.

(3) الآية 13 من سورة لقمان.

(4) الآية 5 من سورة التوبة.

يتجاوز عدد آياتها الست لا يتلاءم مع القول: بأن الآية الأخيرة منها تدل على أنه لا مانع من عبادة المشرك للأصنام، وعبادة المؤمن لله تعالى، فإن الإسلام يسمح بذلك بمقتضى هذه السورة.

بل هذا الرفض المتواصل في السورة قد يوحي بأن الآية الأخيرة تريد أن تهدد من يصر على الشرك: بأن عليه أن يتحمل مسؤولية هذا الظلم الذي يمارسه، ويواجه تبعاته بنفسه في الدنيا والآخرة..

وقد قال الله تعالى ليونس بن متى عن قومه: ﴿**وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1]. وقد كاد العذاب أن ينزل عليهم لولا توبتهم.

3 ـ بل إن نفس المواجهة القوية والحاسمة قد أظهرت أن ثمة احتقاراً لأولئك الكافرين، ولأصنامهم، حيث ظهر أن الله ورسوله والمؤمنين لا يقيمون لهم ولما يعبدونه وزناً، حتى إنه «صلى الله عليه وآله» كما أظهرت الرواية المتقدمة لم يرض منهم أن يستلم بعض تلك الأصنام. أي أن يلمسها لمس تقديس ـ ولو بالشكل ـ مقابل أن يتخلوا هم عنها، ويدخلوا في دينه.. لأنه يعلم: أن استلامها سوف يثير الشبهات، وتنسج لأجل ذلك الأضاليل والتراهات، لخداع كثير من الغافلين والجاهلين بها..

لَكُمْ دِينُكُمْ:

1 ـ وقد قرر تعالى في هذه الآية: أن دينهم لهم، وله هو «صلى الله عليه

(1) الآية 41 من سورة يونس.

وآله» دينه، وهذه اللام ليست للملك، لأن الدين لا يملك، بل هي لام الاختصاص.. أي أن عبادة الأصنام خاصة بكم، ولا تتعداكم إلي، كما أن دين رسول الله «صلى الله عليه وآله» خاص به.

وقد قدم تعالى الحديث عنهم ليفيد: أنه «صلى الله عليه وآله» بريء من أصنامهم، وأنها خاصة بهم، ولا تتعداهم إليه.. ثم أكد ذلك بنسبة دينه إليه.

2 ـ ثم إنه تعالى اعتبر عبادتهم لأصنامهم ديناً لهم، ولعل السبب في ذلك: أنه قد راعى منطقهم وما يعتبرون أنفسهم مطالبين به، ويرونه ديناً، لا يحصلون على ما يتوخونه من تلك الأصنام، من رزق، وشفاء، وتدبير، وحل مشكلات، ومعونة، وتقريب لهم إلى الله زلفى، وما إلى ذلك.. بدون هذه العبادة لها، وليس المقصود: أن عبادة الأصنام فيها مواصفات الدين الحق، كالعقيدة والشريعة، وغير ذلك من أمور.

3 ـ كما أنه سبحانه وتعالى لم يقل: لي ديني ولكم دينكم..

ولعل سبب ذلك: أنه تعالى يريد ما يشبه التخلية ثم التحلية. أي يريد البراءة من كل شرك وكفر أولاً، ثم التحلية بالإسلام.

وَلِيَ دِينِ:

ويلاحظ: أنه لم يقل: ولنا ديننا، بل نسب الدين إلى شخص النبي «صلى الله عليه وآله».

ولعل سبب ذلك:

أولاً: أن لا يتوهم متوهم: أن أحداً ممن هم على دين النبي «صلى الله

عليه وآله» قد شارك النبي «صلى الله عليه وآله» في شيء مما جاء به.

ثانياً: إن الدين هو اختيار الأفراد وقرارهم، ويعرف بها يعلنونه من ذلك، ويقرون به على أنفسهم، وقد قال موسى «عليه السلام»: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾[1].

لذا، فإن الدين والاعتقاد ليس مما يمكن فرضه على الغير، قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[2].. غاية ما يمكن هو بيان الرشد من الغي، وتنتهي مهمة الأنبياء والأوصياء، والدعاة إلى الله عند هذا الحد.

ولعل هذا هو منشأ الوهم لدى البعض: أن هذه الآية، أعني قوله تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ تدل على أن الإسلام يفسح المجال لعبادة الأصنام، ولا يمانع فيها..

فتوهم: أن الإكراه على الأمور الاعتقادية يتحقق..

والحقيقة: أن ذلك لا يصح، إذ لا إكراه في الدين..

غاية الأمر: أنه يمكن المنع من الممارسات العلنية لما يفرضه الأمر الاعتقادي.

ثالثاً: قد ظهر من نسبة الدين إلى جماعة الكافرين: أن من الممكن للكافرين أن يتبانوا على أمر، ويعتبروه عقيدتهم، ويجحدوا الحق، حتى وإن كانوا يتيقنون به على قاعدة: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾[3].. لاسيما وأنه ليست

---

(1) الآية 25 من سورة المائدة.

(2) الآية 256 من سورة البقرة.

(3) الآية 14 من سورة النمل.

لديهم روادع أخلاقية ودينية تمنعهم من ذلك..

ولكن أهل الحق، والأخلاق، والقيم، والشهامة، والنبل والكرامة، لا يفعلون خلاف ما يأمرهم به دينهم، وخلقهم، ووجدانهم، وما ينافي كرامتهم.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

حرر بتاريخ 1437/11/2 هـ. ق.

2016/8/6م. ش.

كلمة أخيرة:

وبعد..

فإن ما تقدم كان في أكثره قد ذكر في جلسة لنا مع بعض الإخوة الأكارم، فما كان صواباً، فبتسديد من الله، وما كان خطأ، فبتقصير أو قصور مني..

والله أسأل أن يلهمنا الصواب في أعمالنا، ويوفقنا لخدمة ديننا.. ويدفع عن كل مسلم ومسلمة، شر الأشرار، وكيد الفجار، إنه ولي قدير..

حرر بتاريخ 1437/11/2 هـ. ق.

2016/8/6م. ش.

لبنان ـ جبل عامل ـ قضاء بنت جبيل ـ عيتا الجبل (عيثا الزط سابقاً)

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

1 ـ الآداب الطبية في الإسلام
2 ـ ابن عباس وأموال البصرة
3 ـ ابن عربي سنيّ متعصب
4 ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية
5 ـ أحيـوا أمـرنا
6 ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم
7 ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..
8 ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل
9 ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)
10 ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»
11 ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي
12 ـ الإمام علي والنبي يوشع '
13 ـ أهل البيت ^ في آية التطهير
14 ـ أين الإنجيل؟!
15 ـ بحث حول الشفاعة
16 ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية

17ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

18ـ بنات النبي ' أم ربائبه؟!
19ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان
20ـ تحقيقي در باره تاريخ هجري
21ـ تخطيط المدن في الإسلام
22ـ تفسير سورة ألم نشرح
23ـ تفسير سورة التكاثر
24ـ تفسير سورة التوحيد (الإخلاص)
25ـ تفسير سورة التين
26ـ تفسير سورة الضحى
27ـ تفسير سورة العاديات
28ـ تفسير سورة الفاتحة
29ـ تفسير سورة الفلق
30ـ تفسير سورة الكافرون (هذا الكتاب)
31ـ تفسير سورة الكوثر
32ـ تفسير سورة الماعون
33ـ تفسير سورة المسد
34ـ تفسير سورة الناس
35ـ تفسير سورة النصر
36ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)

37 ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات
38 ـ الحاخام المهزوم

39 ـ حديث الإفـك
40 ـ حقائق هامة حول القرآن الكريم
41 ـ حقوق الحيوان في الإسلام
42 ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×
43 ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×
44 ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×
45 ـ خسائر الحرب وتعويضاتها
46 ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)
47 ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)
48 ـ دراسة في علامات الظهور
49 ـ دليل المناسبات في الشعر
50 ـ ربائب الرسول ’ «شبهات وردود»
51 ـ رد الشمس لعلي ×
52 ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)
53 ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)
54 ـ زينب ورقية في الشام!!
55 ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي
56 ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)

57ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية
58ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور
59ـ سيرة الحسين × في الحديث والتاريخ (أربعة وعشرون جزءاً)

60ـ شبهات يهودي
61ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة
62ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)
63ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ' (خمسة وثلاثون جزءاً)
64ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد
65ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)
66ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!
67ـ ظلامة أبي طالب ×
68ـ ظلامة أم كلثوم
69ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني
70ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت
71ـ علي × والخوارج (جزءان)
72ـ الغدير والمعارضون
73ـ فصل الخطاب في الميزان
74ـ القول الصائب في إثبات الربائب
75ـ كربلاء فوق الشبهات
76ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×

77 ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
78 ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
79 ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)
80 ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).

81 ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»
82 ـ المسجد الأقصى أين؟!
83 ـ مقالات ودراسات
84 ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية
85 ـ من شؤون الحرب في الإسلام
86 ـ المواسم والمراسم
87 ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام
88 ـ موقف الإمام علي × في الحديبية
89 ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)
90 ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^
91 ـ وقفات مع ناقد
92 ـ الولاية التشريعية
93 ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة

قيد الإعداد

1ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (الجزء الثاني)
2ـ مختصر مفيد (المجموعة التاسعة عشر)
3ـ عهد الأشتر.. مضامين ودلالات